

حجاج أبو جبر | *Hajjaj Abu Jabr

هل من مكان للهوية في عالم معاولم؟ استكشاف "الهوية السائلة" عند زيمونت باومان

**Is there a Place for Identity in a Globalized World?
An Exploration of Zygmunt Bauman's "Liquid Identity"**

ملخص: يرتبط خطاب "الهوية السائلة" عند زيمونت باومان بتحولات الحداثة الغربية بوجه عام، وبإذابة الأطر المرجعية والهويات الموروثة بوجه خاص. ويفترض هذا الخطاب أن عمليات الإذابة كانت ترمي إلى استحداث أطر مرجعية أشد صلابة وأكثر عقلانية، أما الآن فإنها لا تكتثر باستحداث أطر بديلة، بل تدفع الهوية إلى حالة من السيولة الشاملة والدائمة. وتفترض هذه الدراسة أن خطاب باومان عن الحداثة السائلة يتجاوز الفصل الحاد بين الحداثة وما بعد الحداثة (أو الحداثة والعلومة)، ويرى الحداثة متالية واحدة تختلف في درجة الإذابة ووحّدتها ونطاقها ومداها. وهذا يعني أن مشكلة الهوية مشكلة قديمة، لكنها تشهد تحولاً جديداً في شكلها ومضمونها في زمن العولمة. وتسعى الدراسة إلى الكشف عن هذا التحول، وذلك من خلال استكشاف أهم الصور المجازية في خطاب باومان عن الهوية. ويأتي هذا الاستكشاف في محورين أساسيين، هما: الصور المجازية للهوية في الحداثة الصلبة (الحاج، والبستانى، والبطل)، والصور المجازية للهوية في الحداثة السائلة (اللاعب، والسائح، والصلوك).

كلمات مفتاحية: الهوية السائلة، الحداثة، ما بعد الحداثة، العولمة، الفقراء الجدد.

Abstract: Zygmunt Bauman's discourse on 'liquid modernity' is associated with the transformations of the project of Western modernity in general, and the liquefaction of frames of reference and inherited identities in particular. This discourse assumes that the processes of liquefaction were meant to create more solid and more rational frames of references, yet these processes no longer care about the creation of alternative frames of reference, thus throwing identity into a permanent and comprehensive state of liquidity. This paper assumes that Bauman's discourse on liquid modernity goes beyond the strict separation between modernity and postmodernity (or modernity and globalization), stressing instead modernity as a sequence that differs in the degree, intensity, scope and scale of liquefaction. This means that the identity problem is an old one, yet it witnesses a New transformation in its form and content in the era of globalization. The paper seeks to uncover this transformation through an exploration of the most important metaphors in Bauman's discourse on identity. This exploration comes in two main sections: metaphors of identity in solid modernity (pilgrim, gardener and hero), and metaphors of identity in liquid modernity (player, tourist and vagabond).

Keywords: Liquid Identity, Modernity, Postmodernity, Globalization, the New Poor.

* أستاذ النظرية النقدية، أكاديمية الفنون، القاهرة.

مقدمة

ينطلق زيغمونت باومان في تحليله خطاب الهوية من تمييز الفيلسوف الألماني مارتن هيدغر بين الشيء الجاهز المعطى *Zuhanden* والشيء القابل للاستعمال والتشكيل *Vorhanden*. ويفترض باومان أن الحداثة الغربية تخصصت في تحويل الأشياء من مجرد الحضور الجاهز المعطى إلى الحضور القابل للاستعمال والتشكيل. ولذا دأبت الحداثة منذ ظهورها على إذابة كل ما هو صلب وإعادة تشكيله، وكانت الحصيلة هي إلقاء الطبيعة البشرية وأشكال الحياة التقليدية في بوتقة الصهر والتّحديث⁽¹⁾.

مع أن الفرد هو الفاعل المنوط به تكوين الذات وتوكيدها وتغييرها، فهو في الوقت نفسه موضوع عملية التشكيل. ولذا كانت الهوية مهمة فردية تتشكل اجتماعياً، وتحظى بفرصة كبيرة من النجاح والاستقرار والصلابة بفضل ثقة ثلاثة: الثقة بالنفس، والثقة بالآخرين، والثقة بالمؤسسات الجمعية⁽²⁾. ولم يكن في وسع الفرد الإجابة عن سؤال الهوية "من أكون؟" إلا بالإشارة إلى الروابط التي تصل الذات بالآخرين، وافتراض ثبات الروابط وموثوقيتها عبر الزمن حتى يمكن رسم خطة الحياة وتنفيذها على المدى البعيد⁽³⁾. وهكذا حلّت فكرة "مشروع الحياة" محل القضاء والقدر، و"الهوية" محل الطبيعة البشرية⁽⁴⁾.

يؤكد باومان أن العقل الحديث لم يكن ملحداً بالضرورة، بل سعى إلى تهميش الإله في الأمور الدينية، وتولى العلم مهمة التّحديث، وحقق نجاحات كثيرة، ولكن تلاشت سلطة المقدس وفكرة الأبدية؛ وذلك بسبب تعليق القضايا الكبرى أو تهميشها أو استبعادها من مشروع الحياة والتركيز على الـ *الهُنَا والآن*⁽⁵⁾.

وقد احتفى فلاسفة التنوير بفضيلة تكوين الذات وتوكيدها والقدرة على تغييرها، وكانوا يطمحون إلى تشكيل مراكز جديدة أشد صلابة تَعد بمزيد من الحرية على أساس العقل⁽⁶⁾، ولكن هذه الحرية الديمقراطية كانت تحمل أيضاً بذور الشمولية؛ لأن الحداثة لم تتق بأن الجميع سيتبعون العقل بإرادة وشجاعة، وكان لا بد من إرغامهم على أن يكونوا أحجاراً. فالهوية ليست مسألة فردية خالصة، بل إنها عملية تتشكل اجتماعياً، حتى وإن كانت الفردانية تشير إلى تحرير الفرد من الشخصية الاجتماعية الموروثة وتحويل الهوية من "هبة جاهزة" إلى "مهمة إجبارية" تقوم على تحمل المسؤولية وعواقبها⁽⁷⁾.

(1) Zygmunt Bauman, "Identity in the Globalising World," *Social Anthropology*, vol. 9, no. 2 (June 2001), p. 122.

(2) Ibid.

(3) Zygmunt Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi* (Cambridge: Polity Press, 2004), p. 69.

(4) Bauman, "Identity in the Globalising World," p. 123.

(5) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, p. 73.

(6) Bauman, "Identity in the Globalising World," p. 123.

(7) Ibid., p. 124.

ويصف باومان هذه المعضلة بأنها تأرجح حتى بين محاولتين متعارضتين في تشكيل الهوية: الليبرالية (قيمة الحرية الفردية) والجماعية (قيمة الأمان التي يُعد بها الاتتماء). فهذا التأرجح سمة من سمات الوجود الإنساني المركب ومحاولة للتوفيق بين الأضداد. وبين المبدأ الليبرالي والمبدأ الجماعي، تتشكل معركة الهوية وتصبح أداءً للتوحيد والتفرق، والجمع والفصل، والاستيعاب والإقصاء⁽⁸⁾.

في زمن الحداثة الصلبة، كانت مشكلة الهوية تدور حول سبل بنائهما والحفاظ على صلابتها واستقرارها، كما كانت تشير إلى فعل متوجه نحو المستقبل، وإلى مشروع مفترض، وإلى هوية مفترضة. وكان بناء الهوية عملية دائمة ومهمة فردية، كما ارتبط بمفهوم الثقافة، في إشارة واضحة إلى عدم الكفاءة الفردية وال الحاجة إلى التربية الجمعية، وأهمية المربيين العارفين، وتلازم حرية الاختيار الفردي والاعتماد الاجتماعي على إرشاد الخبراء⁽⁹⁾. وربما يفسر ذلك اهتمام باومان بدور المفكرين وفلسفته التنوير في صناعة الهوية في زمن الحداثة الصلبة، حتى إنه وضع كتاباً كاملاً عن دورهم ومكانتهم في صنع العقل الحديث، وإن كان دورهم في تشكيل الهوية قد أصبح متواضعاً للغاية في عصر ما بعد الحداثة وزمن العولمة⁽¹⁰⁾.

مع أن مشكلة الهوية لم تكن مسألة مركزية في اهتمامات الآباء الروحيين لعلم الاجتماع (إميل دوركايم وجورج زيميل وماكس فيبر)، فإن باومان يستحضر مفهوم ماكس فيبر عن "العقلانية الأداتية" instrumental rationality، مؤكداً أن مشكلة الهوية كانت تنحصر في الكفاءة النسبية للأدوات والوسائل وتوافرها لتحقيق الغايات، ولكن تغيرت الظروف في عصر العولمة بعد مرور قرن من الزمان على أطروحتات فيبر، وتغيرت مشكلة الهوية في شكلها ومضمونها. وأصبحت مشكلة الهوية تمر بفارق جديد بعدما برع العقل البشري في الإنتاج المفرط للوسائل بما يتجاوز الحاجات، وبعدما صارت الوسائط الوفيرة تبحث عن غايات تخدمها، وبعدما صارت الغايات غير محددة وغير يقينية، وبعدما انهارت الروابط الاجتماعية التي تتشكل فيها الهوية، وبعدما حل الإشباع الآني محل إرجاء الإشباع، وبعدما أضحت القدرة على الاستهلاك هي التعبير الأمثل عن حرية الاختيار، وبعدما انهار الإيمان بوجود غاية كبرى للتغيير التاريخي، وبعدما سادت عمليات تحرير السوق وشخصية الواجبات والمهام التحديدية، وبعدما انتقل الخطاب الأخلاقي والسياسي من إطار "المجتمع العادل" إلى إطار "حقوق الإنسان"⁽¹¹⁾.

(8) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, pp. 77–78.

(9) Zygmunt Bauman, "From Pilgrim to Tourist—or a Short History of Identity," in: S. Hall & P. Du Gay (eds.), *Questions of Cultural Identity* (London: Sage Publications, Inc., 1996), p. 19.

(10) Zygmunt Bauman, *Legislators and Interpreters: On Modernity, Postmodernity and the Intellectuals* (Cambridge: Polity Press, 1987).

ترجمت هذا الكتاب إلى العربية، وهو قيد النشر بالمركز القومي للترجمة في مصر.

(11) Bauman, "Identity in the Globalising World," p. 125;

ينظر أيضًا: زيمونت باومان، *الحداثة السائلة*، ترجمة حجاج أبو جبر (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016)، ص 75-74.

أولاً. صور الهوية في الحداثة الصلبة

في زمن الحداثة الصلبة، اختار كارل ماركس "الطبقة الاقتصادية" بوصفها ركيزة أساسية في تحديد الهوية الاجتماعية، فكانت تتحدد هوية الشخص بالدور المتبع الذي يؤديه في التقسيم الاجتماعي للعمل، وذلك عندما كانت الدولة حربيّة على الحفاظ على صلابة هذا الدور وامتداده الزمني⁽¹²⁾. ولذا كانت الحداثة الغربية نقطّة فاصلة بين التراتبية القديمة التي كانت تحدد الهوية بالميلاد والوراثة (رجال الدين، والنبلاء، وال العامة)، والطبقات الاقتصادية الجديدة التي جعلت الهوية مهمة ومهارة فردية، فلم تعد شهادة الميلاد هي الدليل على الانتماء إلى طبقة، بل صار الانتماء إلى طبقة معينة يحتاج إلى إثبات بالأفعال وبالقدرة على أن يحيا الفرد حياة الطبقة التي يتميّز إليها. كما صارت عضوية الطبقات الحديثة تتطلب مهارات محددة ثبت القدرة على الالتحاق بعضوية الجماعة، بل تأكيد العضوية في ممارسة السلوك اليومي. وكان النطّاع إلى الهوية فعلًا تحرريًّا من جمود الطبقة التقليدية والسلطة الثابتة والحقيقة المطلقة. وهذه الحرية في تحديد الهوية لازمتها ثقة بالنفس، وثقة بالآخرين، وثقة بعزمّة المجتمع وديمومة مؤسساته. فكانت الاختيارات المحددة اجتماعيًّا تبدو ملائمة ووجيهة، كما كان المستقبل يبدو آمنًا ومضمونًا⁽¹³⁾. وسألناول هنا أهم الصور المجازية التي استخدمها باومان في تحديد معالم الهوية في استراتيجيات الحياة الحديثة في مرحلة الصلابة.

1. الحاج

لقد وجد باومان في شخصية الحاج أنساب صورة مجازية تعكس استراتيجية الحياة الحديثة الطامحة إلى بناء الهوية، كما أضفت الحداثة دلالةً جديدة على شخصية الحاج المغترب في الدنيا، بل ربما جعلت منه صاحب الأخلاق البروتستانتية المتناغمة مع روح الرأسمالية الحديثة بالمعنى الذي حدده فيبر⁽¹⁴⁾.

فالحاج يرتحل دومًا في الدنيا عبر الزمن بحثًا عن مملكة الأبدية، ويشعر بغريبة دائمة في كل مكان، وعظمة وجهة المستقبل وجاذبيتها تجعل من الحاضر مرحلةً مؤقتة أقل قيمة من المستقبل المتوقع⁽¹⁵⁾. والجّاج هو الناسك الذي يشد الرحال إلى الصحراء ويتخذها موطنًا له بعيدًا عن صخب الحياة، وعن جنة الوجود مع الآخر وجحيمه، والصحراء ليست مكانًا يبحث فيه الناسك عن هوية، بل إنه يفقد فيها هويته، غير مقلل بمسؤوليات الحياة وواجباتها، بل يتقرب إلى الله ويتدرّب على بناء الذات⁽¹⁶⁾.

وفي تأثر واضح بالقرابة الانتقائية التي وضعها فيبر بين الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية الحديثة، يؤكّد باومان أن البروتستانس قد حققوا تحولًا كبيرًا في صورة الحاج. فصارت رحلة الحج ممكنة من دون ترك البيت، ومن دون الشعور بالغربة، ومن دون الذهاب إلى الصحراء، بل صارت رحلة الحج

(12) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, p. 45.

(13) Ibid., pp. 49–50.

(14) Bauman, "From Pilgrim to Tourist," p. 26.

(15) Ibid., pp. 19–20.

(16) Ibid., p. 20.

تشير إلى التقدم نحو وجهة معينة واكتساب المعنى لاجتناب الضياع في صحراء الحياة⁽¹⁷⁾. وفي هذه الرحلة، كانت فضيلة العمل العقلاني وإرجاء الإشباع طاقةً دافعةً، وكان الادخار من أجل المستقبل أهم استراتيجية في تحقيق النجاح، كما صاحب إرجاء الإشباع ثقةً بالحصول على المكافأة في عالم منظم وقابل للتوقع⁽¹⁸⁾. وتكشف صورة الحاج (الرأسمالي الزاهد والعامل المنتج) عن هوية تتشكل في إطار الفعل الاقتصادي والتنظيم العقلاني للعمل الحر، الذي ارتبط بالتقدم الذاتي الأخلاقي وفضائل العزيمة والتضحية والمجاهدة والمثابة وإرجاء الإشباع. وأصبح العمل هو الوضع الطبيعي للبشرية، والبطالة هي الوضع الشاذ، وتعددت فضائل العمل، وتربع العمل على عرش القيم، وأصبح يؤدي "دور الحاسم في الطموح الحديث بتطويع المستقبل، والسيطرة عليه، واستغلاله، واستعماره حتى يحل النظام محل الغوضى"⁽¹⁹⁾.

2. البستاني

في ضوء مركزية العمل والإنتاج في بناء الهويات، كان من يفتقر إلى صنعة أو حرفة؛ يفتقر إلى أهم وسيلة من وسائل بناء الهوية. وتحوّل العاطلون والفقراء المُعَذَّمون في القرى إلى فائض بشري، وجدبهم فرصـة الهوية المجهولة في المدينة، وكان الطابع المراوغ لهذه الهوية المجهولة ينذر بعدم الأمان وعدم الاستقرار⁽²⁰⁾.

في رحلة الترشيد والعقلنة rationalization، احتاجت الحداثة الصلبة إلى شخصية البستاني الذي يفضل الحشائش الضارة عن النباتات النافعة، ويضع الحدود الفاصلة بين النظام والغوضى. ويستخدم باومان هذه الصورة المجازية للإشارة إلى دور الدولة الحديثة والفلسفـة والعلماء في إرساء النظام والتبشير بمستقبل أفضل⁽²¹⁾. وكان إقصاء العاطلين والمتشردين والغرباء عملية تدمير خلاقـة؛ لأنهم لا يصلحون للبقاء على خريطة العالم الجمالية والأخلاقية والمعرفية. ولذا عكفت الدولة الحديثة على إخضاع سكانها إلى فحص سريع كامل حتى تحولـهم إلى مجتمع منظم، أقرب إلى سلطـان العقل. وكان المجتمع الخاضع للتخطيط عقـلاني هو الغـاية النهائية المعلنة للدولة الحديثة، فكانت الدولة الحديثة دولة بـستانة، وكان موقفـها هو موقفـ البـستانـي [...] ووضـعت آليـات ذات أغـراض تـهدف إلى توجـيه التـغير في اتجـاه التـخطيط العـقـلـاني⁽²²⁾.

وقد انطوى بناء النظام الحديث على التدمير المادي أو الثقافي للغرباء، وغالباً ما كان الغرباء في العصر الحديث مجرد فضلات ناجمة عن حمية الدولة البـستانـية العاكـفة على إرـساء النظام⁽²³⁾. وارتـبطت سـيـادة

(17) Ibid., p. 22.

(18) Ibid., p. 23.

(19) باومان، *الحداثة السائلة*، ص 203.

(20) Bauman, *Legislators and Interpreters*, pp. 43–44.

(21) Bauman, *Socialism: The Active Utopia* (New York: Holmes & Meier, 1976), p. 24.

(22) زيمعونـت باومـان، *الحدـاثـة والإـبـهـام*، ترجمـة حـجاج أبو جـبر (القـاهرـة: المـركـز الـقومـي لـلتـرـجمـة، 2018)، ص 35.

(23) Zygmunt Bauman, *Postmodernity and its Discontents* (New York: New York University Press, 1997), pp. 18–19.

الدولة البستانية في عصر بناء الأمة باستحداث هوية مشتركة متخلية، وقلما كانت الهويات القومية طبيعية، بل قامت على إمكانية دمج الخلفيات الإثنية المختلفة في بوتقة صهر واحدة (دولة واحدة لأمة واحدة)⁽²⁴⁾.

لم يهتم باومان بمسألة الهوية الشخصية، على الأقل في جانبها القومي، إلا في عام 1968 عندما جرّدته الدولة البولندية من جنسيته وأصبح غريباً مثل اللاجئين والمهاجرين. وبعدما حصل على الجنسية البريطانية، عاش في بريطانيا طوال حياته بولندياً غريباً. وعندما حصل على دكتوراه فخرية من جامعة تشارلز في براغ وطلب منه قبل الحفل أن يختار عزف النشيد الوطني البولندي أو البريطاني، أصابته الحيرة واختار في النهاية النشيد الأوروبي الذي يقول: كل البشر سيصيرون إخوة Alle Menschen werden Brüder⁽²⁵⁾.

تحتل صورة البستانة مركزية في ثلاثة باومان عن الحداثة الصلبة: *أهل التشريع وأهل التأويل* (1987)، *والحداثة والهولوكوست* (1989)، *والحداثة والإبهام* (1991). وتكشف هذه الصورة عن أهمية العمل العقلي في تشكيل الهوية في الحداثة الصلبة، بل وعن عواقبه التي راحت بين الإقصاء والإبادة. وتعرض ثلاثة باومان الثقافة الحديثة بوصفها "ثقافة بستانة؛ ثقافة ترى نفسها خطة لحياة مثالية وتنظيم مثالى للأوضاع الإنسانية؛ ثقافة تستمد هويتها من الارتباط في الطبيعة الغافية"، كما أن "الإبادة الحديثة، مثل الثقافة الحديثة، مهمة يؤدّيها البستاني"⁽²⁶⁾. وفيها يتم التعامل مع قطاعات سكانية بوصفها نباتات نافعة لا بد من رعايتها، وقطاعات أخرى بوصفها حشائش ضارة لا بد من اقتلاعها.

3. البطل

قامت الحداثة الصلبة على فكرة الوطنية، وخاصةً فكرة البطل الحديث الذي يعبر عن استعداده للموت في سبيل رفعة الأمة. وكانت الوطنية بهذا المعنى تشير إلى شعور بهوية الارتباط بأرض الوطن والأباء والأجداد وبامة تختلف عن الأمم الأخرى. ويربط باومان الوطنية القومية البطولية التي سادت الحداثة في مرحلة الصلابة بالعلمنة وتاليه الأمة/ الدولة. فالدولة الحديثة تجند البطل الحديث لا في سبيل الخالص الأخلاقي، بل في سبيل تأمين الخلود المادي العلماني للأمة، ومن ثم تقام النصب التذكارية دليلاً واضحاً على المكتسبات والمنافع المادية التي يتحققها الموت في ميدان المعركة. فكان عصر بناء الأمة/ الدولة هو عصر البطولة أو عصر الحماسة الوطنية البطولية. ويكشف باومان عن صلة البطولة بمشروع الحداثة والعلمنة قائلاً: "غالباً ما توصف الحداثة بأنها زمن العلمنة (كل ما هو مقدس يُدينَس' كما قال ماركس وإنغلز في شبابهما)، كما توصف بأنها زمن 'فَكَ السحر عن العالم' [كما قال ماكس

(24) Elirea Bornman, "Struggles of Identity in the Age of Globalization," *Communication*, vol. 29, no. 1 & 2 (2003), p. 33.

(25) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, p. 10.

(26) زيمونت باومان، *الحداثة والهولوكوست*، ترجمة حاجج أبوجبر ودينا رمضان، تقديم عزمي بشارة (الدوحة) / بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019)، ص 190.

فيبر]. أمّا ما يسكت عنه هذا الوصف، وينبغي ذكره، فهو أن الحداثة شهدت تأليهاً للأمة وإلباسها لباس سحر عجيب، فصارت الأمة هي السلطة الجديدة، واشتركت في هذه السلطة المؤسسات البشرية التي ادعّت أنها تتحدد باسم الأمة. ولم يحدث إنكار 'للمقدس' بقدر ما حدث 'نقل عنف' لسلطته، فانتقل المقدس إلى الوجود تحت إدارة جديدة، وفي خدمة الأمة/ الدولة الناشئة، والشيء نفسه حدث للشهيد؛ إذ جنّدته الأمة/ الدولة تحت اسم 'البطل'"⁽²⁷⁾.

فقد كانت الدولة تحتاج إلى الأمة وتجنيد الأبطال، وكذلك كانت الأمة تحتاج إلى الدولة (السلطة البستانية) حتى تصل الهوية الفردية والجماعية إلى درجة كبيرة من التمايز والتماسك. ولو لا ممارسة الدولة لسلطة تصنيف الأصدقاء والأعداء، وتخليل ذكرى الأبطال، لما تحققت الوحدة والتماسك لطرق الحياة المختلفة. وهذا يعني أن الهوية الوطنية كانت من البداية صيحة حرب، وتجنيداً للأبطال، ومشروعًا يحتاج إلى يقطة وجهد وقوة وسيادة⁽²⁸⁾. ويصف باومان الحاجة المتبادلة بين الأمة والدولة قائلاً: "كانت الأمم الصاعدة تحتاج إلى سلطة الدولة حتى تشعر بالأمن، وكانت الدولة الناشئة تحتاج إلى الحماسة الوطنية حتى تشعر بالقوة، فكانت الأمة بحاجة إلى دولة، والدولة بحاجة إلى أمة حتى يكتب لها البقاء. فاحتاجت الدولة إلى رعاياها المحبين للأمة، والمستعددين للتضحية بحياتهم الفردية من أجل بقاء 'الجامعة المتخيلة' التي تمثلها الأمة؛ كما احتاجت الأمة إلى أعضائها باعتبارهم رعايا لدولة تملك سلطة تجنيدهم الإلزامي في سبيل 'قضية قومية'، وإذا اقتضى الأمر، فإنها تجبرهم على التضحية بحياتهم في سبيل خلود الأمة. وهكذا وجدت الدولة والأمة أنساب حل لمشاكلهما في فكرة الموت المجهول الذي يُفضي إلى الخلود غير الشخصي"⁽²⁹⁾.

يستشهد باومان بتعريف فيبر للدولة بوصفها القوة الفاعلة التي تحترك وسائل القهر واستخدامها داخل أرض سيادية، ويفوكد أن السيادة الإقليمية والتشريعية والتنفيذية للدولة لم تنفصل عن السيادة الاقتصادية والثقافية والعسكرية (القائمة على تضحية الأبطال البواسل وتخليل ذكرهم)، وكان الهدف من ذلك هو احتكار موارد القوى الاجتماعية المتفرقة وتوظيفها في حفظ هوية الدولة وتميزها عبر الهوية المميزة لرعاياها وأبطالها⁽³⁰⁾.

ثانيًا. صور الهوية في الحداثة السائلة

رأى باومان أن الخيال السوسيولوجي يحتاج إلى استحداث صور مجازية جديدة تناسب الأزمة الجديدة المتغيرة وتحدياتها الجديدة. ففي عصر العولمة، تتسرّع إذابة المؤسسات والأطر الاجتماعية، وتتحول الهوية نفسها إلى عباء ثقيل يقيّد الحرية والمرنة الالزامية لاصطياد الفرص المستقبلية في

(27) زيمعونت باومان، *الحياة السائلة*، ترجمة حجاج أبو جبر (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016)، ص 72-73.

(28) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, p. 21.

(29) زيمعونت باومان، *الخوف السائل*، ترجمة حجاج أبو جبر (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2017)، ص 65.

(30) Zygmunt Bauman, *Globalization: The Human Consequences* (Cambridge: Polity Press, 1998), pp. 61-62.

عالم استهلاك الأشياء والبشر على السواء⁽³¹⁾. فلم تعد الهوية تقوم على امتلاك قوة وعزيمة كافية لمواصلة الرحلة، بل تقوم على انتقاء أقل المنعطفات خطورة عند أقرب نقطة تقاطع من أجل تغيير الاتجاه قبل أن ينسد الطريق أو قبل تحويل مساره النهائي. وهذه صورة مجازية يستخدمها باومان للإشارة إلى ضرورة اليقظة والانتباه للخيارات الأخرى في حالة سحب الهوية المختارة من السوق أو تجریدها من قواها الجذابة⁽³²⁾.

سأركز في هذا القسم من الدراسة على أهم الصور المجازية التي يوظفها باومان في استكشاف مشكلة الهوية في عصر العولمة والحداثة السائلة. ويدرك باومان أنه ليس من السهل الجمع بين هذه الصور المجازية في نموذج واحد متماسك أو في أسلوب واحد للحياة، وهذا يشير إلى عدم استقرار استراتيجيات الحياة وتدعيماتها السلبية على التوجهات السياسية والأخلاقية؛ لأنها تفضي إلى علاقات إنسانية مفككة ومتقطعة لا ترغب في الالتزامات والواجبات الطويلة الأمد⁽³³⁾. ويفؤكد باومان أن هذه الصور أنماط حياتية قديمة وليس ابتكارات ما بعد حادثة، لكن العولمة تعيد تشكيلها وتضفي عليها سمات جديدة⁽³⁴⁾.

1. اللاعُب

تحوّل الحياة من رحلة الحاج الباحث عن غاية كبرى إلى لعبة لانهائيّة من البدايات الجديدة والنهايات السريعة. فلا مجال لوضع خطط مفصلة وطويلة الأمد في لعبة الحياة السريعة؛ لأن قواعد اللعبة تتغير حتى قبل نهايتها، ويتحول الزمن إلى حلقات منفصلة عن ماضيها ومستقبلها، لحظات مكتفية بنفسها ومنغلقة على نفسها، ولا مجال فيها لاستدعاء عزيمة رحلة الحاج القائمة على إرجاء الإشباع والتضخي والمتاثبة في لحظات المحاولة والخطأ والانتصار والانكسار⁽³⁵⁾. ففي هذه اللعبة، يصدر الحنين إلى الهوية عن رغبة في الأمان والأمان (أمن الوظيفة، وأمن العائلة، وأمن العلاقة الزوجية، وأمن الجيرة)، وعن خوف من الهجران والوحدة في زمن الالاقيين المزمن، ولكن يتضح أن الهويات نعمة ونقمّة تتأرجح بين الحلم والكافوس⁽³⁶⁾.

تصدر المشهد حرية المناورة التي أصبحت القيمة الحاكمة لكل القيم؛ فإنها الانفتاح على الاختيارات وذوبان الأطر المرجعية والمعايير الاجتماعية القديمة. أمّا الهوية المتسقة والمتماسكة فتنذر بإغلاق الباب أمام الفرص والعروض والخيارات المحتملة وغير المحتملة⁽³⁷⁾؛ وذلك لأنّ أفضل الهويات المطلوبة في عصر العولمة هي الهويات التي يمكن ارتداؤها وخلعها كما نرتدي الملابس ونخلعها،

(31) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, pp. 51–53.

(32) Bauman, "Identity in the Globalising World," p. 126.

(33) Bauman, "From Pilgrim to Tourist," p. 33.

(34) Ibid., p. 26.

(35) Ibid., p. 25.

(36) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, p. 38.

(37) Bauman, "Identity in the Globalising World," p. 126.

من دون عواقب أو التزامات⁽³⁸⁾. وبالطبع يصاحب هذه النزعة الفردية انسحابٌ من المشاركة الاجتماعية والسياسية، وشخصية صراعات الحياة⁽³⁹⁾.

لم تعد استراتيجية الحاجّ ممكنته، وتضليل فرص نجاحها، بل إن قواعد اللعبة في المجتمع الاستهلاكي تتغير في أثناء اللعب⁽⁴⁰⁾. ويكمّن الخلاص الغردي في ممارسة ألعاب صغيرة وقصيرة الأجل، والحدّر من الالتزامات والروابط الطويلة الأمد، وعدم التقيد بمكان ثابت، وعدم التقيد بوظيفة واحدة مدى الحياة، وعدم الولاء لأي شخص أو لأي شيء. وهذا يعني قطع الحاضر عن الماضي، وإلغاء الزمن، وتحول كل الزمن إلى حاضر أبيدي. وهنا يفقد إرجاء الإشباع معناه، بل تفقد كل الإرجاءات معانيها. فلم تعد المشكلة في البحث عن الطرق التي نبني بها الهوية، بل كيف نمنعها من الالتصاق بنا؛ وذلك لأنّ الهوية الصلبة المتشكلة في إطار الالتزامات والواجبات تحولت من مكسب إلى مغرم. ولا تحتاج استراتيجية الحياة في عصر العولمة إلى اجتهاد الفرد في بناء هوية متماسكة ومتسقة، بل إلى مهارة اللاعب في اجتناب تثبيت الهوية⁽⁴¹⁾.

لقد انتهى زمن الوظيفة الدائمة مدى الحياة، فأصبحت الوظائف تظهر وتختفي دون إشعار، ولم تعد المهن والوظائف رسالة أخلاقية، ولم تعد تدوم المهارات المطلوبة للمهن، بل تتغير دوماً في أثناء اكتسابها، كما لم تعد تتمتع الوظائف ولا أماكنها بالثبات أو الاستقرار بعدما أذابت قوى العولمة الأماكن نفسها التي يمكن أن يستقر الناس فيها لبناء الهوية بوصفها مشروع حياتهم⁽⁴²⁾، بل إن كلمة الترشيد أو العقلنة rationalization أصبحت تعني اختفاء المزيد من الوظائف والأماكن وعدم استقرار شبكة العلاقات الإنسانية⁽⁴³⁾.

هنا يؤكّد باومان أنه "عندما يسود فقدان الأمان، ويدرك الناس أنه لا مفر منه، فإنّ الوجود [...]" يصير أقرب إلى لعبة، يكون فيها "العالم الخارجي" أحد اللاعبين، ويسلك مثلما يسلك اللاعبون كافة، يُداري أوراقه ويخفّيها. وكما يحدث في آية لعنة من الألعاب، تميل خطط المستقبل إلى أن تكون وقته ومتغيرة ومتبدلة"⁽⁴⁴⁾. ويلخص باومان هذا الانتقال من استراتيجيات الحاجّ والبستانى والبطل إلى استراتيجية اللاعب قائلاً: "تحوّل العمل من عالم بناء النظام والتحكم في المستقبل إلى عالم اللعب، وصارت أفعال العمل تشبه إلى حد بعيد استراتيجية اللاعب الذي يضع لنفسه أهدافاً متواضعة قصيرة المدى لا تتجاوز الخطوة التالية أو الخطوتين التاليتين"⁽⁴⁵⁾.

(38) Ibid., p. 127.

(39) Ibid.

(40) Bauman, "From Pilgrim to Tourist," p. 24.

(41) Ibid., p. 24.

(42) Ibid.

(43) Ibid., p. 25.

(44) باومان، الحداثة السائلة، ص 203.

(45) المرجع نفسه، ص 205.

فالملاعب هو عالم ضربة الحظ، وفيه يتحول الزمن إلى سلسلة من الألعاب المنفصلة والمنغلقة على نفسها والمكتفية بنفسها، ولكل لعبة بداية ونهاية، ولا مجال للشفقة والرحمة والمواساة، وتتحول العلاقات إلى ألعاب حرب غير رحيمة⁽⁴⁶⁾. وترتبط هذه الصورة المجازية بفك الارتباط، واجتناب الالتزام، وقمع الواقع الأخلاقي، والتمرکز حول الذات، والقلق الدائم، واللايقين المزمن، وفقدان الأمان.

يسود العالم المعولم حالة متنامية من اللايقين، والأحداث السريعة المتوازية، وتابع البدایات الجديدة أو النهایات السريعة الهادئة. ويقارن باومان هذا النمط السائل للوجود بلعبة الكراسي الموسيقية، وإن كانت لعبة واقعية وخطرة ومخيفة؛ لأنها تهدد باستبعاد الضعفاء والفقراء، وربما تؤدي غفلة اللاعب إلى هزيمة نهائية واستبعاد نهائي. ويرى باومان أن هذه الحياة السائلة تكشف عن تحول في فكرة التقدم نفسها، فيقول: "تحوّلت فكرة 'التقدم' إلى واقع مريض وجبرية مترفة، بعدما كانت أبرز تجلّيات التفاؤل الجذري والأمل بتحقيق السعادة الدائمة للجميع؛ فصارت ترمز إلى تهديد دائم وحتمي لا يبشر بالراحة والسكنية، بل ينذر بالشدة والمشقة الدائمة، ويحرّم أيّة لحظة للراحة، مثل لعبة الكراسي الموسيقية التي تؤدي الغفلة اللحظية فيها إلى هزيمة محقّقة واستبعاد نهائي. فلم تعد فكرة 'التقدم' توحّي بالأمال الكبرى والأحلام الجميلة، بل صارت تشير إلى المعاناة من الأرق وكوابيس الخوف من 'الخلاف عن الركب'، أو فقدان القطار، أو السقوط من نافذة مركبة تسير بسرعة فائقة"⁽⁴⁷⁾.

ليس بمستغرب، إذًا، أن يتعرض الخيال الطبوابي المرتبط بالإنتاج والبطولة والتضحية إلى سخرية بالغة، وأن تظهر "السيادة المطلقة لمبدأ اللذة في عالم الاستهلاك"⁽⁴⁸⁾. وليس بمستغرب أن توارى صور الحاج والبستانى والبطل حتى تفسح الطريق إلى "نهاية اليوتوبيا"، وأفول الخيال الطبوابي، والانتقال من الحداثة الصلبة إلى الحداثة السائلة، والتحول من التدخل الصارم الذي كان يمارسه البستانى إلى متاهة اللاعب، حيث يُقاس العمل بقدرته على التسلية والإمتاع، فلا يُشبع الرسالة الأخلاقية البروميثانية للممنتج والمبدع بقدر ما يشبع الحاجات والرغبات الجمالية لكل من المستهلك، والباحث عن اللذات الحسية، والهاوي لجمع التجارب⁽⁴⁹⁾.

تقرب الحداثة في مرحلة السيولة من "ثقافة الكازينو"، حيث تتحول الحياة إلى ألعاب فردية تتألف من حلقات مغلقة ومتمركزة حول نفسها، وتستمد حركتها من داخلها، بل تتحول إلى سلسلة من البدایات الجديدة أو مجموعة من القصص القصيرة⁽⁵⁰⁾. وفي هذه اللعبة، يصبح الإسراف في الاستهلاك علامه التجاه والشهرة، ويعدو امتلاك بعض الأشياء أو استهلاكها شرطًا ضروريًّا للسعادة، وربما للكرامة الإنسانية⁽⁵¹⁾.

(46) Bauman, "From Pilgrim to Tourist," p. 31.

(47) باومان، الحياة السائلة، ص 99.

(48) Bauman, *Intimations of Postmodernity* (London/ New York: Routledge, 1992), p. 50.

(49) باومان، الحداثة السائلة، ص 206.

(50) Bauman, "As Seen on TV," *Ethical Perspectives*, vol. 7, no. 2 (2000), pp. 107–121.

(51) Bauman, *Postmodernity and its Discontents*, p. 40.

لا يتمتع اللاعب بفانتازيا الهوية إلا بالقدرة على التسوق في سوبر ماركت الهويات. وتكون المفارقة في أن المواد والأدوات المصنوعة بالجملة تصبح وسائل للتنوع الفردي والهوية الفريدة والمتمفردة⁽⁵²⁾. فلا يحتاج اللاعب إلى تحمل عبء فضائل العمل والتضحية وإرجاء الإشباع، بل يكفيه اللعب الجمالي المرتبط بالأنظمة الغذائية المتقدمة، وأجهزة اللياقة البدنية، والتصميمات والديكورات الجديدة، والأرضيات الخشبية، والسيارات المتعددة الأغراض، والسترات الأنثقة، والأحذية الرياضية الحديثة، والاعترافات العامة بالأسرار الحميمة المثيرة، وعجائب تعديل الجينات الوراثية، والعاقير العجيبة⁽⁵³⁾.

في هذا العالم المعولم، يستعصي على اللاعب فهم الانتحاريين الذين يضحيون بحياتهم بكل ما فيها من مباهج وملذات لصالح قضية دائمة أو نعيم أبيدي⁽⁵⁴⁾. فالقيمة الكبرى هي البقاء الفردي، وما غير ذلك ف مجرد استثمار هزيل، ويصبح الاستهلاك الآني هو الغاية الكبرى، ويصبح الإشباع الآني هو الخلاص الوحيد⁽⁵⁵⁾. وهذا يعني أن الحياة السائلة يمكن أن تستغني عن الشهداء والأبطال، بل إنها تحارب أي مظاهر تؤيد الاستشهاد أو البطولة، وتعتبرها مظاهر لاعقلانية غير مجدهية: "ففي عالمنا [الغربي الاستهلاكي]، يبدو من الصعب، وربما من المستحيل، أن نفهم السبب الذي يجعل أنساناً في أنحاء أخرى من العالم يضحيون بحياتهم في سبيل 'قضية' ما، أن نفهم السبب الذي يجعلهم يختارون الموت ما دامت تضحيتهم تساعد 'القضية' على أن تبقى حية وتنتصر في نهاية المطاف [...]" فعندما نسمع عن 'الانتحاريين'، نحاول أن نخفي حيرتنا ودهشتنا وراء مقولات من قبيل 'التعصب الديني'، و'غسيل الدماغ'، وهي مقولات تشير إلى عجزنا عن فهم هذا اللغز المُحير بدلاً من تفسيره. وربما نحاول أن نتخلص من حيرتنا (مؤقتاً على الأقل) بعز وداعف معينة إلى الانتحاريين يسهل فهمها، فنقول إنهم سُدّج، غُرّر بهم بوعود كاذبة، ولما وثقوا بتلك الوعود، فعلوا ما فعلوا من أجل مكاسب شخصية وسعادة شخصية (أفراح أبدية فيها ما لذّ و طاب، وملذات جنسية تتضرر الشهداء في الجنة). وهي دوافع تشبه تماماً الدوافع التي عهداها، ونصبو إلى تحقيقها في حياتنا الدنيا"⁽⁵⁶⁾.

الحياة الحديثة السائلة تحول العالم بأسره، بما في ذلك البشر وطرق حياتهم، إلى مواد استهلاكية. وعندما تفقد الموضوعات والبشر والتقاليد نفعيتها أو قيمتها الأداتية، فمن الممكن، بل من الأفضل، التخلص منها بسرعة؛ وذلك لأن متعة سباق الحياة "تعود في نهاية الأمر إلى الراحة التي يجلبها الهروب منه بسلامة ومن دون ألم"⁽⁵⁷⁾. فلا يعرف سباق الاستهلاك شفقة ولا رحمة، ويقول باومان: "يكمن الرهان الحقيقي في هذا السباق في النجاة (المؤقتة) من الاستبعاد والإدراج في صفوف الهاكين،

(52) باومان، الحداثة السائلة، ص 140.

(53) المرجع نفسه، ص 30.

(54) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, p. 73.

(55) Ibid., p. 74.

(56) باومان، الحياة السائلة، ص 68-67.

(57) المرجع نفسه، ص 22.

ويكمن كذلك في اجتناب الإلقاء في سلة المهملات. وما دامت المنافسة تحول إلى منافسة عالمية، فإن الجري لا بد من أن يكون حول مضمار عالمي⁽⁵⁸⁾.

في هذا السياق، يحرص اللاعب على اصطياد العلاقات الجنسية الصافية التي يمكن تشكيلاها حسب حاجاته ورغباته بعيداً عن قيود الارتباط الدائم والمصاهرة والتکاثر وإعداد أجيال المستقبل. فهذه العلاقات غير الثابتة لا يمكن أن تؤدي إلى هويات ثابتة، فلا مجال للالتزام القوي ولا الارتباط العميق ولا الإخلاص، بل تكمن النجاة في براعة التهرب من الواجبات⁽⁵⁹⁾. لقد توارى خطاب الميول الجنسية والهوية الجنسية بوصفها هبات طبيعية أو تشكيلات ثقافية، وترك الأمر إلى قدرة اللاعب على تحديد الهوية أو الهويات الجنسية التي تناسبه على أفضل وجه⁽⁶⁰⁾.

في عصر العولمة، تفتقر الهوية الجنسية إلى الوضوح، ويجري اختزال الهوية الإنسانية المركبة في الإنسان ذي البعد الواحد (الاقتصادي الاستهلاكي). ولا يسمح العالم الذي يحكمه اقتصاد السوق بالدخول إلا للإنسان الاقتصادي والإنسان الاستهلاكي⁽⁶¹⁾. وتكمّن ميزة الهويات التي تروجها السوق في أنها تأتي كاملة مع عناصر القبول الاجتماعي، فلا حاجة إلى تأكيد الذات لأن القبول الاجتماعي مدمر في المنتج من البداية⁽⁶²⁾. بل إن العولمة تتجاوز فكرة الهوية الجنسية نفسها، ويجري اختزال العلاقة الجنسية المركبة إلى نشاط جنسي محض يهدف إلى إشباع الرغبة الجنسية وتفریغ التوتر والتنفيس عنه، ويتحول شريك الحياة إلى وسيلة قابلة للاستبدال⁽⁶³⁾.

تصبح الهوية جذابة ومنفرة، مرغوبة ومكرورة، خاصةً في العلاقات الشخصية القائمة على الحب والشراكة والارتباط والحقوق والواجبات؛ لأن الحب فعلٌ من أفعال العلو، وتعييرٌ عن الطاقة المبدعة المحفوفة بالمخاطر واللایقين. أمّا النمط الاستهلاكي في العلاقات فيقضي بأن القيمة الوحيدة هي القيمة الاستعمالية للأشياء وقدرتها على منح الإشباع، وما إن يتوقف الإشباع حتى يتوجه الفرد إلى التخلص من الأشياء غير المفيدة⁽⁶⁴⁾.

هذا النمط الاستهلاكي المهيمن يسري على البشر والحيوانات الأليفة، حيث يتم التخلص من الكلاب كل ثلاثة أشهر من أجل الحصول على كلاب أكثر مواكبة للموضة. ويتحول البشر والحيوانات إلى نفaiات يتم التخلص منها في أقرب مكتب للنفايات، ولا فرق بين الحيوانات والبشر في سياق حضارة الفوارغ لأنهم جميعاً موجودون لغرض واحد وهو الإشباع. وعندما يفقدون القدرة على الإشباع

(58) المرجع نفسه، ص 24.

(59) Bauman, "From Pilgrim to Tourist," p. 25.

(60) زيجمونت باومان، *الحب السائل*، ترجمة حجاج أبو جبر (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016)، ص 92.

(61) المرجع نفسه، ص 109.

(62) Zygmunt Bauman & Tim May, *Thinking Sociologically*, 3rd ed. (Oxford: John Wiley and Sons, 2019), p. 87.

ترجمت هذا الكتاب إلى العربية تحت عنوان *التفكير سوسيولوجيًا*، وهو قيد النشر في دار الروايد الثقافية في بيروت.

(63) Ibid., pp. 87–88.

(64) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, pp. 61–64.

المتوقع، تندفع قيمتهم⁽⁶⁵⁾. ويسود صراع الرغبة في الارتباط والخوف منه، ويتمتع اللاعب بقلة من العلاقات العميقة وكثرة من الاتصالات السطحية⁽⁶⁶⁾.

تتوارد مفاهيم الذات والهوية، وتتبدي مركزية الجسد، بيد أن الاحتفاء بالجسد لا يتمركز اليوم حول تكثيف الإنتاج والتراكم الرأسمالي (أخلاقيات الزهد البروتستانتي كما ساقها فيبر) في الواقع الصناعية أو الخدمة العسكرية البطولية في الجيوش الناظمة. وترتبط هذه الظاهرة بديناميات السوق التي حلت محل المصنع وميدان المعركة، وتتصدر المشهد النزعات الحسية الجسدية بوصفها الغاية النهائية لسياسة الحياة، ويشغل الجسد "مكانة فريدة لا يضاهيها أي دور أُسند إلى أي كيان آخر في عالم الحياة"⁽⁶⁷⁾.

2. السائح

ليست شخصية السائح صورة جديدة، بل لقد شهدت الحданة الصلبة ميلاد شخصية المتسلك الشغوف الذي يتتجول في المدينة بلا هدف (الفلانور flâneur). كانت هذه الشخصية تستمتع بمباهج المدينة دون الارتباط بعذاباتها. فقد كانت شخصية هامشية ترى الحياة نزهة، كما كانت تحيا على هوا من الحياة الواقعية، أما الآن فيتنزه الجميع وهم يتسوقون، وتحول مراكز التسوق إلى "جزر ما بعد حدانة في البحر الحديث"، بحيث يمكن الدخول في الهويات والخروج منها بسهولة، وهكذا تتوارد صورة الحاج (الرأسمالي الزاهد، والعامل المنتج، والبطل الشهيد) ليحل محله المتنزه الاستهلاكي⁽⁶⁸⁾.

كان السائح يسكن هوامش الفعل الاجتماعي، وكانت السياحة فعلاً هامشياً انتقل اليوم إلى مركز الفعل الاجتماعي؛ حيث يعيش السائح في حركة دائبة، ينتقل من مكان إلى آخر، ولا يتنمي إلى أي مكان، بل يتتجول بداعي البحث عن تجربة جديدة، ويبحث بوعي عن تجربة الاختلاف والجدة بعيداً عن المأثور بغرض الإثارة واللذة والمتعة⁽⁶⁹⁾. ويقود السائح معايير جمالية على حساب الأبعاد الأخلاقية، وهو يؤكّد حقه في عدم الإزعاج، والتحرر من أي فضاء غير الفضاء الجمالي، إلى أن يعود إلى بيته بعد مغامراته السياحية⁽⁷⁰⁾. وفي عصر العولمة، تتحول السياحة إلى نمط حياة، وتشير إلى الخوف من التقيد بالوطن والمكان. وهنا يتتحول الوطن إلى خليط من المأوى والسجن؛ لأن السائح يريد مزيداً من الفضاء، والفضاء هو آخر شيء يمكن أن يجده المرء في الوطن⁽⁷¹⁾. ويتتحول الناس والعالم في نظر السائح إلى موضوع جمالي، إلى مسألة تذوق وليس مسألة مسؤولية، ويتتحول العالم إلى أشياء ممتعة لا بد من اعتبارها للتلذذ بها بأقصى قدر ممكن⁽⁷²⁾.

(65) Ibid., p. 65.

(66) Ibid., pp. 68–69.

(67) باومان، الحياة السائلة، ص 126.

(68) Bauman, "From Pilgrim to Tourist," p. 27.

(69) Ibid., p. 29.

(70) Ibid., p. 30.

(71) Ibid., p. 31.

(72) Ibid., p. 34.

تخدم العولمة أحالم السّيّاح ورغباتهم، وفي أثناء ذلك تحول البقية إلى صعاليك⁽⁷³⁾. فالسيّاح والصعاليك مستهلكون، وإن كان الصعاليك مستهلكين مساكين، وربما كائنات غير نافعة، وكائنات غير مرغوبة، وكائنات مفتقرة إلى الوسائل والإمكانات التي يمتلكها السيّاح⁽⁷⁴⁾. كما أن الصعلوك هو الآنا الأخرى للسائح، لكن الخط الفاصل بينهما ليس واضحًا وثابتاً على الدوام⁽⁷⁵⁾. وبينهما تقع أغليبة المستهلكين والمسافرين، وتشير يوتوبوا السائح إلى عالم بلا صعاليك، وهنا يجري تجريم الفقر في عالم تسوده سياحة الأثرياء والنخب العولمية⁽⁷⁶⁾.

وتؤدي سطوة مبدأ اللذة إلى تحول العالم بأسره إلى طبقتين: طبقة السيّاح وطبقة الصعاليك. فالصعاليك هم نفایات العالم التي تسخر نفسها في خدمة السيّاح، ويقول باومان: "السائح يبقى أو يرحل كما يحب ويهوى، فيرحل عن موقع عندما تظهر له فرص في موقع آخر. أما الصعلوك المشرد فيعرف أنه لن يمكن في أي مكان طويلاً مهما تطلع إلى ذلك، فما من مكان يرحب به إذا مر به. ويتقل السائح لأنه يجد العالم الذي يسهل الوصول إليه جذاباً أيمما جاذبية، أما الصعلوك المشرد فيتقل لأنه يجد العالم الذي يقع فيه لا يرحب به ولا يطيق ضيافته على الإطلاق. فيسافر السائح لأنه يري ذلك، أما الصعلوك المشرد فيسافر لأنه لا يملك خياراً آخر"⁽⁷⁷⁾.

في ضوء هذه المقاربة المجازية للوضع الإنساني، يبدو أنها جميعاً عالقون في سلسلة متصلة تمتد بين قطبيين، وهما: السائح المثالي والصعلوك البائس. وتشير الحادثة السائلة إلى التحول من الاحتفاء بالمنتجين والأبطال إلى الاحتفاء بالسيّاح والمشاهير. بيد أن عصر العولمة الذي تهيمن عليه حالة السيولة لا يمكن أن تصوّره دون وجود الصعاليك، لأنهم ربما يمثلون للنخب العولمية السياحية مواد نافعة أو جماعات وظيفية⁽⁷⁸⁾.

كما ترتبط صورة السائح بفكرة "الثقافة الهجينة"، ويرى باومان أنها صورة مجازية تضفي رونقاً أيديولوجيًّا ظاهرياً على التحرر من المحلية. وعلى منوال النخب العولمية التي تسكن "اللأماكن"، تبحث الثقافة الهجينة عن هويتها في "عدم الانتماء"، ولا يعتد الهجين الثقافي بالحدود التي تقيد حركة المحليين⁽⁷⁹⁾. وتمثل هذه الفكرة تناقضًا في فكرة الهوية بالمعنى الذي حدده جان بول سارتر (مشروع لا يتنهى)، وبالمعنى الذي حدده بول ريكور (مزيج من الهوية الشخصية التي تفترض التماسك والاتساق، والهوية العينية التي ترمز إلى الاستمرارية). فهذه سمات ترفضها "الهوية الهجينة"⁽⁸⁰⁾.

(73) Bauman, *Globalisation*, p. 93.

(74) Ibid., p. 96.

(75) Ibid.

(76) Ibid., p. 97.

(77) Ibid., pp. 92–93.

(78) حاجج أبو جبر، *نقد العقل العلماني: دراسة مقارنة لفکر زیغمونت باومان وعبد الوهاب المسيري* (الدوحة) / بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص 227.

(79) باومان، *الحياة السائلة*، ص 55.

(80) المرجع نفسه، ص 56.

بيد أن النخبة المثقفة العولمية غير المتجانسة ترى "التهجين" بديلاً من استراتيجية "الاستيعاب"، وصفة مجملة تشمل التعددية الثقافية، والتسوية بين الثقافات، وإلغاء تراتبية الثقافات التي لا يمكن أن يشكل أيّ منها إطاراً مرجعياً لتشكيل الهوية على المدى البعيد (السيولة الشاملة)⁽⁸¹⁾.

يرمز التهجين إلى صيغة الموضة، إلى "حركة تتجه نحو هوية غير ثابتة، بل وغير قابلة للثبات"، مما يعني ضرورة الانفتاح على الخيارات المتاحة كافة⁽⁸²⁾. فالثقافة الهجينة "تأكل كل ما تجده، فلا تتقيّد بالالتزام ولا اختيار ولا تحيّز، بل تقوّد رغبة واستعداد للتلذذ بكل ما تجده في طريقها، وأن تستسيغ الأكلات وتهضمها كافة"⁽⁸³⁾. وهذه الحالة الجديدة من "ميوّعة" الذات توصف بأنها "حرية"، لكنها هوية مائعة⁽⁸⁴⁾. ويرى باومان أن هذه الهوية المائعة تتبدى في بوتقة الصهر الأميركي؛ لأن أميركا تجريب لكافة المواد الخام التي يمكن استخدامها في تشكيل الهوية؛ حيث إنها سوق استهلاكية، ومصنع هويات، وقلة من القيم المشتركة التي تحافظ على تماسك المجتمع. وتتسم هذه الهوية المائعة بالاختيار الفردي لطريقة الحياة، كُلّ بحسب قدرته و اختياراته وفضيلاته، مع استدعاء دائم للأعداء (الشيوعيين وما دون الطبقة)، حيث لا يتحقق التماسك إلا بالمخاوف المشتركة والكراهية المشتركة، والطبيعة المؤقتة لكل هوية، والاختيار بين عدد لا ينهاي من النماذج الثقافية المعروضة⁽⁸⁵⁾.

أما مشروع التكامل الأوروبي فقد بدأ بعد الحرب العالمية الثانية محاولة لإرساء السلام في القارة الأوروبية وحل المشكلة الألمانية واحتواء جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق، وكان يعتقد أن هذا التكامل سيعزز سيادة الدول القومية، لكن بعد نهاية الحرب الباردة تبيّن أن الضرورات الاقتصادية هي أهم عامل في سياق العولمة الاقتصادية المتزايدة⁽⁸⁶⁾ (حتى في الحرب الروسية الراهنة على أوكرانيا كانت كل العقوبات الاقتصادية، بل كان الوعود الذي قطعه الاتحاد الأوروبي على نفسه هو توفير مساعدات عسكرية فتاكه لأوكرانيا في مواجهة روسيا). ولذا يحتاج الاتحاد الأوروبي إلى بعد ثقافي في اختراع الهوية؛ لأن المواطنات الأوروبية البازغة تحضّ الأوروبيين وقصي غير الأوروبيين، ولذا تواجه مشكلة في التعامل مع الأقليات المهاجرة، وتقوم هوية الإقصاء على التمييز على أساس الدين والعرق: الأمم المسيحية البيضاء في مقابل الأقليات غير المسيحية غير البيضاء⁽⁸⁷⁾ (ويتبّدئ ذلك في الخطاب الراهن حول حرب روسيا على أوكرانيا والذي يميز بين التحضر النسبي للاجئين الأوكرانيين، وعدم تحضر اللاجئين السوريين والأفغان والعرقين والأفارقة).

(81) المرجع نفسه، ص 57.

(82) المرجع نفسه، ص 58.

(83) المرجع نفسه.

(84) المرجع نفسه، ص 59.

(85) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, pp. 81–83.

(86) Bornman, "Struggles of Identity in the Age of Globalization," p. 37.

(87) Ibid., p. 38.

لقد تحررت الإثنين العرقية من أقفال الاتحاد الشيوعي، وتطلع إلى التمتع بحرية الاختيار وإذابة استقلالها السياسي والاقتصادي والعسكري في السوق الأوروبية وحلف شمال الأطلسي "الناتو"، والمطالبة بمقعد في الأمم المتحدة⁽⁸⁸⁾. وهنا تتوارى سلطة المفكرين والمثقفين، فلا يؤدون دور البستاني، بل يؤدي المفكر والمثقف دور المعلم المتواضع على استراتيجيات الحداثة السائلة. ويقول باومان: "لا يمتلك المفكرون (مثل أي شخص آخر) سيطرة على قوى السوق، وليس بوسعهم أن يأملوا بواقعية في امتلاك أية سيطرة"⁽⁸⁹⁾. وتصبح السوق هي الفردوس الاستهلاكي، ومملكة الحرية والتحرر، والقضاء الوحيد لممارسة حرية الاختيار والديمقراطية والهوية الهجينة والهوية المائعة.

3. الصعلوك

المعنى السائد للعولمة هو عولمة المال والأعمال والتجارة وتدفق المعلومات، لكن المعنى الآخر الذي يركز عليه باومان هو عولمة الفقر والجريمة والإرهاب. ربما تبدو العولمة حرية جديدة مرغوبة لأقلية من الناس (السياح)، لكنها تبدو قدرًا قاسياً غير مرغوب لأغلبية الناس (الصعاليك أو الفقراء الجدد أو الجماعات الوظيفية أو الجماعات الخطرة أو ما دون الطبقة بالمعنى الذي حده باومان). فصارت حرية الحركة والتنقل التي تتيحها العولمة إحدى القيم العليا في الأزمنة ما بعد الحداثة (السائلة)، لكنها سلعة غير موزعة بالتساوي، بل تتمتع بها قلة من النخب العولمية. وفي ظل هذه التراتبية الجديدة تمثل حرية الحركة والتنقل نعمة للسياح ونقمة للصعاليك الذين يعانون اللايقين الوجودي والقلق والخوف.

ترتبط التراتبية العولمية بإعادة توزيع الامتيازات والحرمانات، الثروة والفقير، القوة والعجز، حرية الحركة وتقييدها. وهذا يعني أن العولمة ليست مجرد تركيز رأس المال وموارد الاختيار الحر، بل هي أيضًا تركيز الحرية وخدمة قلة من الناس؛ ذلك لأن ثروة ما يقرب من ثلاثة من أكابر أثرياء العالم تعادل دخول ثلاثة مليارات من الأفراد الفقراء (ما يقارب الـ 50 في المئة من سكان العالم)⁽⁹⁰⁾.

لا يجد الصعاليك الجدد أماكن الانتفاء؛ حيث تختفي المصانع مع الوظائف ولا تجد المهارات من يشتريها، وتحول المعرفة إلى جهل، وتتداعي شبكات العلاقات الآمنة، ويصير الصعلوك صعلوكًا ليس بسبب صعوبة الاستقرار أو التردد في الاستقرار، بل بسبب ندرة الأماكن المستقرة⁽⁹¹⁾. ويمكننا أن نستشف من كتابات باومان أن عالم الصعاليك يضم جميع الفئات المفتقرة إلى الهوية في العالم السياحي المعولم.

من بين صعاليك اليوم فئة تسمى "ما دون الطبقة" underclass (المتسربون من التعليم، ومتلقؤ الإعلانات من الدولة، ومدمنو المخدرات، والمشراخون، والشحاذون). وتشير "هوية ما دون الطبقة"

(88) Bauman, *Globalisation*, p. 64.

(89) Bauman, *Legislators and Interpreters*, p. 167.

(90) Bauman, *Globalisation*, p. 70.

(91) Bauman, "From Pilgrim to Tourist," p. 29.

underclass identity إلى غياب الهوية، وإنكار الفردية، وإنكار الوجه البشري (الذى هو محل الواجب الأخلاقي والرعاية الأخلاقية)، ومن ثم إمكانية طرد من ينتسبون إلى هذه الفئة خارج الفضاء الاجتماعي الذي يبحث فيه الناس عن الهويات ويختارونها⁽⁹²⁾. ويرى باومان أن الصعاليك هم نفایات العالم الذي يسخر نفسه في خدمة السياح⁽⁹³⁾، إنهم الفقراء الجدد؛ وهؤلاء ليسوا بمستهلكين أو ربما يكونون مستهلكين مساكين لا بد من ضبطهم بالقمع والمراقبة⁽⁹⁴⁾.

من بين صعاليك اليوم اللاجئون؛ فهم أناس بلا دولة، وبلا وثائق رسمية، وبلا أرض في عالم السيادة على الأرض، إنهم أناس يعانون كل أشكال الحرمان، والمنع من الوجود الفيزيائي داخل الأرض التي تحت الحكم السيادي باستثناء الأماكن التي تسمى معسكرات اللاجئين أو معسكرات طالبي اللجوء، على العكس من فضاء الإنسان الطبيعي الكامل الذي ينعم بالحياة وحرية الحركة والتنقل⁽⁹⁵⁾.

تحدد هوية اللاجئين في أرض مجھولة بين الجدران، والأسلام الشائكة، والبوابات المحكمة، والحراس المسلمين، وهذا الإقصاء الدائم يحوّلهم إلى نفایات بشرية لا تحتاج إلى سمات الهوية الفردية، ومن المستبعد إعادة تدويرهم وتحوّيلهم إلى أعضاء شرعيين في المجتمع الإنساني والاجتماعي. وأصبح الساسة يبذلون جهدهم ووقتهم وطاقتهم في تصميم أحد التطرق لإغلاق الحدود وتحصينها⁽⁹⁶⁾. وفي سبيل إقامة "أوروبا الحصينة" يقوم الاتحاد الأوروبي بتحويل الأموال إلى بلدان أوروبا الشرقية والوسطى حتى قبل منحهم عضوية الاتحاد، وهي أموال مخصصة للتكنولوجيا المتطرفة اللازمة لتحصين الحدود الشرقية من تطفل الغرباء⁽⁹⁷⁾.

يتحول اللاجئون والمسردون والعاطلون إلى حالات يستعصي وصفها بالمصطلحات المعتادة التي نحدد بها الهويات البشرية. إنهم يجدون حالات مبهمة يصعب تحديدها "undecidables"؛ فهم ليسوا مجرد جماعات منبوذة *untouchables*، بل جماعات خارج طوق الفكر *unthinkables*، وجماعات خارج طوق الخيال *unimaginables*. وبذلك يمنع المجتمع الغربي اللاجئين ليس فقط من حق الوجود الفيزيائي بينهم، بل من حق الحضور في مرآة الخيال⁽⁹⁸⁾.

كما تشير مخيمات اللاجئين إلى "حالة مؤقتة متجمدة"، إلى سجون و"غيتوات فاقفة"، إلى البقاء على قيد الحياة في يأس يومي. ويسكن هذه المخيمات أشتات بشرية عاجزة عن البقاء بنفسها، وتحتاج دومًا إلى النخب الداعمة أو قوى الدولة من أجل رعايتها والسيطرة عليها. فعلى العكس من النخب العولمية التي تتمتع بحرية الحركة والتنقل، يبدو اللاجئون أهدافاً سهلة وساكنة وعاجزة، لكنها مخيفة

(92) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, p. 39.

(93) Bauman, *Globalisation*, p. 92.

(94) Bauman, *Legislators and Interpreters*, pp. 180–181.

(95) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, p. 39.

(96) زيجمونت باومان، *الأزمات السائلة*، ترجمة حجاج أبو جبر (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2017)، ص .63

(97) المرجع نفسه، ص 74.

(98) المرجع نفسه، ص 67.

وخطرة في نظر الآخرين⁽⁹⁹⁾. فهم جزء من الطبقات الخطرة الجديدة، وليس مجرد فائض بشري يمكن إعادة دمجه في وظيفة مفيدة، بل إنهم فائض بشري عديم القيمة قد يتعرض للإقصاء الدائم⁽¹⁰⁰⁾.

يقع العاطلون أيضًا في عالم الصعاليك. ففي ظل تلاشي أدوار الدولة الاجتماعية، يتحول العاطلون إلى كائنات عديمة القيمة لا بد من التخلص منها في نفايات التقدم الاقتصادي الذي يمكن تحقيقه بعد أقل من العمالة، وبمعاملة أرخص. ويقترب العاطلون من السقوط في الثقب الأسود الذي تمثله "ما دون الطبقة"؛ فلا يصلحون في أي تصنيف اجتماعي مقبول، بل ربما يعاملهم المجتمع معاملة المجرمين بوصفهم عناصر غير لائقة اجتماعيًّا، أو حتى عناصر معادية للوجود الاجتماعي⁽¹⁰¹⁾.

على منوال اللاجئين الذين يعيشون في غيتوات قسرية، أصبحت النخب العولمية تعيش في أحياء منفصلة على شاكلة الغيتوات، بحيث ينفصل عالم حياتهم عن عالم حياة بقية سكان المدينة، وتتحول غيتواتهم الطوعية إلى قلاع ومعاقل نائية. وتتوفر العولمة لأعضاء النخبة ابتكارات معمارية و عمرانية جديدة تحيط بها خنادق مائية، وتعلو أسوارها أبراج هجومية؛ لكنها لا تدافع عن المدينة وسكانها ضد العدو الخارجي، بل تقصل سكان المدينة الواحدة حتى تستمتع النخب العولمية باستقلالها الجسدي وانعزالها الروحي، وهذا يعني انسحاب النخبة العولمية الجديدة من التزاماتها القديمة تجاه أهل المكان⁽¹⁰²⁾.

تحرر النخب العولمية من القيود والالتزامات والواجبات نحو المساهمة في الحياة اليومية وإدامة الجماعة الإنسانية: الواجبات نحو الموظفين، ونحو الصغار والضعفاء، ونحو الأجيال المستقبلية. والقراء الجدد هم من يدفعون الثمن الثقافي والنفساني والسياسي لهذا الانزعال الجديد⁽¹⁰³⁾؛ وذلك لأن عدم التمتع بحرية الحركة والتنقل كالآثرياء يولد الشعور بالهزيمة والحرمان والظلم في تقسيم مباح الحياة⁽¹⁰⁴⁾. وربما يشير هذا الانزعال إلى فانتازيا النكوص، وإلى الحالة الجنينية التي يمثلها رحم الأم والبيت الآمن الذي تحيط به الأسوار المنيعة التي تحيط بالمجال الخاص⁽¹⁰⁵⁾.

لكن تناقضات العولمة الاقتصادية أدت إلى الأصولية المتطرفة التي تحاول التصدي لعولمة الفقر والاغتراب. وبعد الحل الأصولي بميلاد جديد، وبوطن جديد دافع وآمن، وتبدو الجماعة الأصولية خيارًا جذابًا وبسيطًا⁽¹⁰⁶⁾. فالأصولية، بمعنى التشبيث بهوية موروثة أو مسندة، نتاج طبيعي لسيرورة النزعة الفردية المفروضة على أنحاء الكوكب كافة⁽¹⁰⁷⁾.

(99) المرجع نفسه، ص 68-69.

(100) المرجع نفسه، ص 87.

(101) المرجع نفسه، ص 88.

(102) المرجع نفسه، ص 95.

(103) Bauman, *Globalisation*, p. 21.

(104) Ibid., p. 24.

(105) باومان، *الحداثة السائلة*، ص 293.

(106) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, p. 47.

(107) باومان، *الحياة السائلة*، ص 53.

بما أن العولمة تنطوي على عمليات التمييز والفصل والإقصاء في الفضاءات المختلفة، فهذا يؤدي إلى ظهور نزعات أصولية وقبلية جديدة في الجهة الأخرى من العولمة. وهذا يعني أن حرية الحركة والتنقل تسلط الضوء من جديد على التقسيمات القديمة بين الفقراء والأغنياء والرّحّل وأهل الاستقرار⁽¹⁰⁸⁾. وهنا تعبر فكرة الجماعة عن بديل جذاب، وحلم جميل، ورؤية للفردوس المفقود، وملاذ للسكنية والسلامة، لكنها تعبر أيضًا عن كابوس وسجين وجحيم لآخرين الذين يناضلون في سبيل حرية الاختيار وتأكيد الذات والتحرر من القيود⁽¹⁰⁹⁾.

الأصوليات جذابة للمحروميين والمعدمين والمجرددين من الكرامة الإنسانية في عالم الاستهلاك الآني والإشباع الآني. إنها مأوى جذاب، وبديل من الدولة الاجتماعية، ومكون مفقود من الحياة الإنسانية الكريمة التي ينكرها عليهم المجتمع بأسره، وإحساس بالهدف والحياة الهدافة والموت الهدف والمكان الهداف في سلسلة الوجود. وليس الأصوليات دينية فحسب، بل تتصل بأشكال الالامساواة العالمية الجديدة والظلم الذي يسود الفضاء العالمي. فهناك هشاشة مشتركة تحتاج إلى أمن مشترك، "ولسنا في نهاية التاريخ، ولا حتى بداية نهاية التاريخ، بل إننا على عتبة تحول كبير، وفرصة للإنسانية أن تفيق"⁽¹¹⁰⁾.

خاتمة

أفاد باومان من المنظور الماركسي في تحليل خطاب الهوية، فكان المصنوع الحديث هو الموضع الذي تتشكل فيه الهويات الحديثة: هوية العامل المنتج وهوية صاحب رأس المال. لكن باومان استعان أيضًا بأطروحتين مضادة للماركسية في فهم خطاب الهوية في عصر الحداثة، وخاصة القرابة الانتقائية التي وضعها ماكس فيبر بين البروتستانتية وروح الرأسمالية الحديثة. وكانت صورة الحاج في ثوبها البروتستانتي المدخل الذي اقترحه باومان لفهم دور الاقتصاد العقلاني المنظم وفضيلة العمل في نشأة الرأسمالية الحديثة وتأكيدها على قيم الإنتاج والتراكم وإرجاء الإشباع. كما ركز باومان على دور الدولة التشريعية الذي شبهه بدور البستانى الذي يضع الحدود الفاصلة بين النظام والغوضى في تشكيل الهوية الفردية والجماعية. واتساعًا مع خلفيته الماركسيّة، سلط باومان الضوء على عوائق تحمل الفرد مسؤولية تشكيل الهوية وعواقبها عندما وضعت الدولة البروتستانتية القوانين التي تجرّم الصعاليك المشردين والعاطلين عن العمل. لكن تجاوز باومان المنظور الماركسي عندما تناول هذه الصورة المجازية في الإطار العام للإقصاء الاجتماعي، خاصةً إقصاء الغرباء في إطار الدولة ذات الهوية المشتركة المتخلية. ويتبين أن طرد باومان من بولندا وتجريده من جنسيته البولندية قد ساهمما في نقد النزعات القومية المتطرفة، وفي توجسه من كل انتماء قومي؛ لأن أي انتماء سيجمع فئة معينة من الناس ويفصلهم عن غيرهم، ولا تنتهي حروب الهوية إلا بالإدماج أو الإقصاء أو الإبادة. وكانت الدولة

(108) Bauman, *Globalisation*, p. 3.

(109) Bauman, *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*, p. 61.

(110) Ibid., pp. 86–88.

الحديثة بحاجة إلى الأمة، ولذا علمنت فكرة الشهادة من خلال فكرة البطل والنصب التذكارية للبطل المجهول الذي يضمن بموته في ميدان المعركة خلود الأمة/ الدولة وهويتها المميزة والمتماسكة.

تأرجح الهوية بين طلب التحرّر الفردي وطلب العضوية في كيان جمعي يعلو فوق الخصوصية الفردية. وتصارع الهوية بين هذين الحدين: الفردية والاتماء الكلّي. ويبدو أن الهوية صراع لانهائي بين الرغبة في الحرية وال الحاجة إلى الأمان. وفي زمن الحداثة السائلة، يتوارى الخيال الطوباوي المرتبط بالإنتاج والسيادة والبطولة، كما تتوارى صور الحاج والبساطاني والبطل حتى تفسح الطريق إلى نهاية اليوتوبيا. وتتبّدى الخلافية الماركسية لباومان في تركيزه على تداعيات العولمة في مجال العمل والاقتصاد، وخاصة اختفاء الوظائف، بل الأماكن التي يمكن أن يستقر فيها الأفراد في عملهم حتى يتمكّنا من تشكيل هوياتهم، بل إن الوظيفة نفسها لم تعد رسالة أخلاقية، وصارت أقرب إلى اللعبة التي تشهد دوماً بدايات جديدة ونهائيات سريعة. وتحوّل الحياة بأسرها إلى لعبة، ويصبح الفرد هو اللاعب واللعبة في عالم الاستهلاك الفوري والإشباع الآني، وتحوّل الناس والأشياء إلى مواد استهلاكية نافعة لا بد من التخلص منها لمواكبة الموضة المتغيرة دوماً، حتى إن فكرة الأسرة نفسها تتوارى، كما تتلاشى فكرة الهويات الجنسية بوصفها هبات طبيعية أو تشكّلات ثقافية. وأصبح العالم يتألف من طبقتين أو هويتين: هوية السياح (النخب العولمية) وهوية الصعاليك (الفقراء الجدد، والطبقات الخطرة، وما دون الطبقة، واللاجئين، والمهاجرين، والعاطلين). واتساقاً مع إيمانه بمركزية العامل الاقتصادي، يؤكّد باومان أن الأصولية الراهنة ابنة شرعية للعولمة، وأنها لا تتصل بالأفكار الدينية فحسب، بل تضرب بجذورها في العواقب الاقتصادية للعولمة التي ركّزت ثروة العالم في يد قلة من الأفراد.

References

المراجع

العربية

- أبو جبر، حجاج. *نقد العقل العلماني: دراسة مقارنة لفكر زيغمونت باومان وعبد الوهاب المسيري*. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.
- باومان، زيغمونت. *الحب السائل*. ترجمة حجاج أبو جبر. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016.
- _____. *الحياة السائلة*. ترجمة حجاج أبو جبر. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016.
- _____. *الحداثة السائلة*. ترجمة حجاج أبو جبر. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2016.
- _____. *الأزمنة السائلة*. ترجمة حجاج أبو جبر. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2017.
- _____. *الخوف السائل*. ترجمة حجاج أبو جبر. بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر، 2017.
- _____. *الحداثة والإبهام*. ترجمة حجاج أبو جبر. القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2018.
- _____. *الحداثة والهولوكوست*. ترجمة حجاج أبو جبر ودينار رمضان. تقديم عزمي بشارة. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2019.

الأجنبيّة

- Bauman, Zygmunt & Tim May. *Thinking Sociologically*. 3rd ed. Oxford: John Wiley and Sons, 2019.
- Bauman, Zygmunt. *Socialism: The Active Utopia*. New York: Holmes & Meier, 1976.
- _____. *Legislators and Interpreters: On Modernity, Postmodernity and the Intellectuals*. Cambridge: Polity Press, 1987
- _____. *Intimations of Postmodernity*. London/ New York: Routledge, 1992.
- _____. *Postmodernity and its Discontents*. New York: New York University Press, 1997.
- _____. *Globalization: The Human Consequences*. Cambridge: Polity Press, 1998.
- _____. "As Seen on TV." *Ethical Perspectives*. vol. 7, no. 2 (2000).
- _____. "Identity in the Globalising World." *Social Anthropology*. vol. 9, no. 2 (June 2001).
- _____. *Identity: Conversations with Benedetto Vecchi*. Cambridge: Polity Press, 2004.
- Bornman, Elirea. "Struggles of Identity in the Age of Globalization." *Communication*. vol. 29, no. 1 & 2 (2003).
- Hall, S. & P. Du Gay (eds.). *Questions of Cultural Identity*. London: Sage Publications, Inc., 1996.